

تعدُّ الزوجات.. وملك اليمين المنسوخُ الآجل.. أو المنسوخُ صيرورةً

المنسوخُ العاجلُ، أو المنسوخُ تصريحاً

المنسوخُ العاجلُ بيانٌ إلهيٌّ سابقٌ نسخته بيانٌ إلهيٌّ لاحقٌ. هو المنسوخُ بنصِّ قرآنيٍّ. النَّاسِخُ صريحٌ مباشرٌ، وجوده راسخٌ جليٌّ في كتاب الله الكريم. والمنسوخُ أنساه الله جلَّ وعلا، أو تركه محفوظاً ليكون حجّةً وبيّنةً لما قد كان. فأما ما أنساه الله فقد غاب عن الإدراك كما عن النّظر. ولا طاقةً لنا، نحن البشر، بتتبّع الأثر. وأما ما تركه لنا العليُّ القديرُ فيبقى عبرةً ودليلاً لمن اعتبر.

المنسوخُ الآجلُ، أو المنسوخُ صيرورةً

هو بيانٌ إلهيٌّ نافذٌ على الدوام، إذ لا ناسخٌ مباشرٌ له. فعله حلالٌ، وهجره أولى. هو جوازٌ ربّانيٌّ، لكنّه جوازٌ مشروطٌ. شرطٌ يصلُّ إلى درجة الإعجاز، لكنّه يبقى مع ذلك في نطاق الممكن. هو المنسوخُ صيرورةً، فناسخه الزّمانُ وتغيُّر الأحوال. هو ضرورةٌ في زمن التنزيل، وهو منسيٌّ في قادماتِ الأيام. هو المنسوخُ المنظورُ، حيثُ ناسخه مستترٌ في جبة الزّمان.

العاداتُ حاكماتُ

في زمن التنزيل، كانتِ النَّاسُ على أخلاقِ آبائهم وأجدادهم. مروحةٌ واسعةٌ من القيم الأخلاقية ومناهج السلوك، تتأقلمها جيلاً بعد جيلٍ. حدث لبعضها أن طالَ عهدُ مقامه، فأحكم سيطرته على العقولِ كما النفوسِ. أصبح العملُ به مفخرةً، وهجره معصيةً أم معيبةً على أقلِّ تقديرٍ.

منها ما وافق مكارم الأخلاق، فأننى عليه القرآن الكريم وأبقاه شرعةً وقانوناً لكلِّ مُقيمٍ. منها المخالفُ الأثيرُ، فحملَ عليه بضراوةٍ وحزمٍ وألغاه عاجلاً وتصريحاً. ومنها الممجوجُ الموقوتُ إلى أجله، فأمهله بعد أن حمّله شروطاً أتقلاً.

زحزحةٌ ناس ذلك الزّمان، كما كلُّ زمانٍ، عمّا اعتادوا عليه من عُرفٍ وأخلاقٍ، هي عمليّةٌ شاقّةٌ وعسيرةٌ. وفي أحيانٍ كثيرةً، محفوفها الخطرُ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ. فالعاداتُ حاكماتُ، والخلاصُ من قبجها الشائنِ جهادٌ نفسٍ وفعلٍ أضحياتٍ.

العاداتُ في حركيّةٍ دائمةٍ

تربو العاداتُ كما الأخلاقُ على حاجاتِ النَّاسِ النفسيّةِ والجسديّةِ. فالواقِعُ ضاغطٌ، وحاجاتُ النَّاسِ لا تنفكُ تعوي في فضاءاتِ العوزِ والصّعفِ والرّغبةِ. محموماً بغريزة البقاء، يعملُ الإنسانُ على قهر الصّعابِ ما أمكنه ذلك. يُلملمُ جزئياتٍ واقعه. يُدققُ أولويّاته. ثمَّ يكونُ له الفعلُ. يُفْلحُ كثيراً، وكثيراً ما يفشلُ. فعلُ النَّجاحِ، كما فعلُ الفشلِ، محرقةٌ فكرٍ وطاقةٍ ومجلبئةٌ همٍّ وقلقٍ.

لا تُحابي العاداتُ كثيراً خطَّ الزّمنِ، هي له مفارقةٌ على الدوام. فبعضُ العاداتِ تتبني مساراً هابطاً. وعلى إيقاع تطوُّر الإنسان والمجتمع، تخبو وهجاً وتخفُّ أثراً على المجتمع كما الأفراد. بالمقابل، بعضُ العاداتِ لا تعرفُ الوهنَ أبداً. فهي ما إنْ تكَّ وجوداً، حتى تشرَسَ في الميادينِ استعماراً، وتوغلَ في النفوسِ استحواداً. فنُصبحُ لازمةً حياةٍ بعد أن كانتِ فعلاً غريباً زانداً.

لن أخوضَ هنا بكثيرِ العاداتِ وجمعِ القيمِ في ذلك الزّمانِ، بل سأكتفي باثنتين شكّلتا على مرِّ العصورِ والأيامِ محورَ حياةٍ وهاجسَ تشريعٍ. سأتناولُ الأولى بحثاً وتفصيلاً كشاهدٍ على العاداتِ المُتخادمةِ ذاتيّاً. بالمقابل، سأكتفي بالإشارةِ إلى الثانيةِ ضمناً على أنها من العاداتِ المُتعاظمةِ فعلاً بمرورِ الزّمنِ. فأما الأولى فتعدُّ الزوجاتِ وملك اليمينِ، وأما الثانيةُ فشربُ الخمرِ.

تعدُّ الزَّوجَاتِ وَمَلِكُ الْيَمِينِ.. الْمَنْسُوخُ الْأَجَلُ

اعتاد رجال ذلك الزَّمان على كثرة الزَّوجَاتِ كما الخليلاتِ. فالرجالُ على الفطرة ما زالوا، ينضحون رغبةً وقدرةً. والنساءُ على النِّدْهَةِ كُنَّ قائماتِ. الرجالُ قليلٌ عديدُهُم، وقد حاربَ وقرابينُ طموح. والنساءُ كثيراتُ، شارداً يملأن السُّوحَ والميادين. قلَّ منسوبُ مطالبيهنَّ، فكانَ أن أصابَ الرجالُ مِنْهُنَّ مَغْنَمًا.

جاءَ الإسلامُ والحالُ على ما أوجزتُ. رجالٌ بعديدِ زوجاتٍ، وبكثيرِ أنيساتٍ. هي مكاسبُ ذكوريَّةٍ موروثَةٌ عبر أجيالٍ وأجيالٍ. هي حالةٌ أفسى من أن يطوِّعها نصٌّ أو يطفئَ جذوتها شرعٌ. فالغريزةُ الجنسيَّةُ حاكمَةٌ، والعقيدةُ مازالت في النفوسِ صغيرةً. كانَ على الإسلامِ أن يُحسنَ المقاربةَ. فالأمرُ بالبعِّ الدِّقَّةِ. إنَّه مسُّ بحررِ الرجالِ الأعلى.

العطايا النَّبُوسُ*

النفوسُ مفطورةٌ على حبِّ لقاءِ النساءِ. هو لقاءٌ ضروريٌّ، كما هو لقاءٌ شهوةٍ في الوقتِ نفسه. حقيقةٌ لا تغيبُ عن مشرِّعِ خلقِ الخلقِ وفطرهمُ على ما همُ فيه. لكن، ضاعبتِ الحدودُ بينَ الضَّرورةِ والشَّهوةِ، فكانَ الخلُّ أزمةً تشريعٍ.

ويبقى السُّؤالُ المُشكلةً، هل من سبيلٍ إلى الفصلِ بينهما، لقاءِ الضَّرورةِ ولقاءِ الشَّهوةِ؟ هل من سبيلٍ إلى تعويمِ الأوَّلِ، وتثقيلِ الثَّاني في الوقتِ عينه؟ فأما الأوَّلُ فوظيفةُ خَلْقٍ، وأما الثَّاني فديسيَّةٌ إنم. الأوَّلُ وسيلةٌ لحفظِ النَّوعِ، والثَّاني دعوةٌ لمفسدةِ النَّوعِ. الأوَّلُ فعلٌ قوَّةٌ للأوطانِ، والثَّاني معولٌ هدمٍ للبنیانِ. الثَّاني للأوَّلِ زَحْمٌ، دونَ أن يكونَ الأوَّلُ للثَّاني لازمةً.

الميزانُ، كما ترونَ، شديدُ الحساسِيَّةِ. فخطأُ الوزنِ قد لا يُحمدُ عاقبةً. فالمُغالاةُ في تهميشِ الشَّهوةِ قد يُلقى بظلالٍ قائمةٍ على ضرورةِ اللِّقاءِ. مستقبلُ النَّوعِ ما يُخشى عليه في هكذا مقامٍ. فغفوةُ الشَّهوةِ قد يعقبها موتُ المشروعِ بأكمله. فلا يسعى رجلٌ إلى لقاءِ امرأةٍ، كما قد لا يحتملُ رجلٌ معبَّةً هذا اللِّقاءِ. فالضَّرورةُ تمتطي الشَّهوةَ ركاباً لبلوغِ الهدفِ. وقد تحرَّنُ الشَّهوةُ فترمي بالضَّرورةَ أرضاً، وتكونُ لها النفوسُ مطايا.

الحلولُ المُعجزةُ

أولاً: خلقُ فكرٍ مُضادٍ

كانَ الإنسانُ نهبَ الغريزةِ. إن تأمره يُطع، أو تستبحه يُدع. كانتِ الحاكمُ المُطلقُ لإنسانِ ذلك الزَّمانِ، لا يُزاحمها في قيادتهِ شريكٌ عنان. فعملُ القرانِ على كسرِ احتكارِ الغريزةِ وإيجادِ المُنافسِ لها في وجدانِ الإنسانِ. لقد اختبرَ الإنسانُ مغبَّةً توحدُ الغريزةِ. وعليه الآنُ أن يختبرَ منتوجَ ثنائِيَّةِ حاكمةٍ جديدةٍ من قيمِ عليا وغريزةِ.

اجتهدَ القرانُ في تكثيفِ هذا المنافسِ وذلكم الشَّرِيكِ. فخلقَ مجموعةً قيمٍ مُضادةٍ لغريزةِ الإنسانِ المُنفلتةِ من عقابها. وأوسعَ في تلكمِ القيمِ شرحاً وترغيباً. بذرَ الفكرِ المُضادِ لتوحُّشِ الغريزةِ. هو يثقُ بفعلِ الفكرِ وقوَّةِ الأفكارِ. لكنَّ الأفكارَ، كالأشجارِ، شمسها الزَّمانُ. فمتى أمهلها الزَّمانُ، احتضنتِ الأرضُ وعانقتِ السَّمَاءَ. فغدَّتْ جزءاً حميماً من تضاريسِ الوجدانِ الفرديِّ كما الجمعيِّ للنَّاسِ في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ.

ثانياً: جوازُ مشروطٍ أم نسخٌ مؤجَّلٌ؟

النُّجعةُ، كما دوماً، في جلبابِ الزَّمانِ. فالعقيدةُ مازالت في المهدِ صغيرةً زمنَ التَّنزيلِ. والنَّاسُ قد أمضتْ مع الكُفرِ عهوداً طويلةً، وعهداً مع الإسلامِ قصيرٌ. النَّاسُ تشتمُّ رائحةَ التَّغييرِ القادمِ من غيرِ مكانٍ. هي تستشعرُ الرَّاحةَ، بيدَ أنها دونَ اليقينِ ما تزالُ. مخافةُ اللهِ فعلٌ إيمانٍ، والإيمانُ يُخالطُهُ الشُّكُّ ما يزالُ.

لا يُمكنُ والحالةُ هذه، أن يُنقلَ المُشرِّعُ على حديثيِّ الإيمانِ. فالمستهدفُ حرزٌ نفيسٌ ترخصُ دونه نفوسُ رجالٍ لَمَّا يصحَّ إيمانهم بعد. فلا موجبٌ لخوضِ معركةٍ باكرةٍ مادامت المخاطرُ بهذهِ الجسامَةِ، هذا من جهةٍ. ومادامَ الفعلُ الموصوفُ دونَ شائنةِ الجرمِ، من جهةٍ أخرى. فكانَ تقييدُ الجوازِ وتثقيلهُ بالشُّروطِ الحلَّ المُعجَزَ حتى يقضي الزَّمانُ نسخاً كانَ موقوتاً.

أجازَ اللهُ جَلَّ وَعَلا تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ، كما أجازَ مُلْكَ الِيمِينِ. هو جوازُ شرطُهُ العَدْلُ أساساً. أمَّا القُدْرَةُ على ارتكابِ هذا الجوازِ فدُونَ ذلك. إذ تَخْتَلَفُ هَمَّةُ الرِّجَالِ باختلافِ الأزمانِ والأحوالِ، فلكلِّ زمانٍ رجالُته. فمن ملكِ الإربِ كما المالُ فليُفْعَلْ إن هو أرادَ. هذا شأنُهُ، وعليه وحيداً تَدْبِرُ التَّبَعَاتُ على ما أقرَّ الشَّرْعُ ورسمَ.

وأما العَدْلُ فتأبَّتْ المُحَيَّا لا تنالُهُ شَيْئَةً ولا غموضٌ. ثابتٌ لا يَتَبَدَّلُ بِتَبَدُّلِ الفصولِ وتعاقبِ الأيَّامِ. عظيمٌ، تنوُّءٌ بحمله جبارُهُ الأَرْضِ كما نجومُ السَّماءِ. العَدْلُ حَصْرِيَّةٌ إلهِ، وفعلٌ إلهِ. فأينَ الإنسانُ من هذا كُلِّهِ. العَدْلُ شرطٌ دونهُ أهوالٌ ومَشَقَّاتٌ لعالمٍ بمعنى العَدْلِ وأوصافِهِ. بشرطِ العَدْلِ ووجودِ القُدْرَةِ، يكونُ فعلُ الجوازِ هذا عَصِيًّا على الرِّجالِ، أو يكادُ.

ثالثاً: المنسوخُ صيرورةٌ

فعلها الزَّمانُ، فأوفى نذوره. فهذا الَّذي نُثِرَ ذاتَ يومٍ في قاحلِ تربةٍ قد امتشقَ عوداً وفاضَ عبيراً. حَجَزَ لِنَفْسِهِ مقاماً رفيعاً في وجدانِ الإنسانِ. لم تُعَدِ الغريزةُ الحَاكِمَ الأوحدَ لإنسانِ هذا الزَّمانِ. صحيحٌ أنَّها لم تُحِبْ حريقاً، لكنَّها فقدتْ أحاديَّةَ حُكْمِ. عليها الآنَ أنْ تتقاسمَ ومنظومةَ القيمِ الجديدةِ قيادَ الإنسانِ.

تسكنُ الغريزةُ والقيمُ العليا عقلَ الإنسانِ جنباً إلى جنبٍ. هما على تماسٍ مباشرٍ، يتحاوران حيناً ويتصارعان أحياناً. فعندَ كلِّ شاردةٍ حياةٍ، يكونُ الاحتكاكُ بينهما حتميةً قرارٍ. تنتصرُ الغريزةُ حيناً، وتفوزُ القيمُ حيناً آخر. جدليَّةٌ لا هدأةَ لها، مخرجاتُها تصوغُ وجدانَ الإنسانِ ومركزاتِ فكرِهِ. حركيةٌ لا تعرفُ سُكوناً، تُغيِّرُ على الدَّوامِ أولويَّاتِ الإنسانِ كما شكلَ معاشِهِ.

تبدلتْ أحوالُ الرِّجالِ، فكانَ أنْ تغيَّرتْ أحوالُ النِّساءِ. فامرأةُ هذا الزَّمانِ هي غيرها في ذلكَ الزَّمانِ. فبعدَ أنْ كانَ حسبها رحماً ولوداً أمٌ جليسا مؤانيساً. هي الآنَ ...، قُلْ ما شئتَ وشاء. لقد انتفختْ أوداجُها كِبِراً. وتضخَّمتْ ذاتُها غوىً. أدركتْ فعلها بقلبِ الرِّجالِ، فكانَ لها أنْ طمعت بما هو أكثرُ.

فلم يُعَدْ لقاءُها مَفازَ شهوةٍ أمْ مَغْنَمَ ضرورةٍ وحسب. هو الآنَ أداتها لإثباتِ الذاتِ وتمكينِ الحضورِ. لقد أصبحَ لقاءُها عزيزاً، دونهُ عظيمٌ أثمانٍ وكثيرٌ أفعالٍ. فهي تتمنى، وتُنْقَلُ الأثيرَ من بوجها أمانياً. أمَّا هو فبينَ حارقتين؛ فإمَّا إذعانٌ فَمَغْنَمِ، وإمَّا ثورةٌ فَمَحْتومٌ عِفَّةٍ. والنتيجةُ كما أرسدها، رجالٌ بكثيرِ ادِّعاءٍ وقليلِ حيلةٍ، ونساءٌ بكثيرِ مطلبٍ وقليلِ تضحياتٍ.

لقد فعلَ الزَّمانُ وتغيَّرَ الأحوالُ فعله فيك وفي مملكتك الموهومة، أيها الرِّجلُ. انقضى ذلكَ الزَّمانُ الَّذي حباك سيداً مفوضاً. ضيَّعَ مفاخرَكَ، كما امتيازَكَ، الواحدةَ بعدَ الأخرى. ضيَّقَ عليكِ فضاءاتِ روضِكَ، وأكسبَ زهورها أشواكاً أنياباً. فأضحى وحيدتها في ضعيفِ كَفِّكَ مَنكلاً، فكيفَ إذا اجتمعنَ عليكِ تنكياً.

"واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"

هو النَّهْجُ القرآنيُّ حينَ مقاربيةِ المسائلِ الهامةِ ذاتِ الدَّلالةِ على أفعالِ الإنسانِ. يبدؤها توعيةً بخلقِ فكرٍ مُضادٍ للغريزةِ محرِّكِ ذلكَ الفعلِ أو تلكمُ العادةِ. متى استوطنتِ الأفكارُ الجديدةُ الوجدانَ الجمعيَّ، ألحقتها شروطاً مُتَقَلِّباتٍ ومُفِيداتٍ لجوازِ الفعلِ. ومن ثَمَّ نكونُ أمامَ ناسخٍ من اثنين. فإمَّا ناسخٌ عاجلٌ، مباشرٌ، صريحٌ، لا أيسرَ فيه ولا تأويلَ. وإمَّا ناسخٌ أجلُّ، غيرُ مباشرٍ، ضمنيُّ، موقوتٌ لأجلِهِ. والاختلافُ في شكلِ النَّسخِ منوطٌ بالتَّطوُّرِ العفويِّ للفعلِ المُشكِّلةِ وللعادةِ الهدفِ.

فبعضُ الأفعالِ مخمَّداتها الزَّمانُ، ومحرقتُها الأيَّامُ وتغيَّرَ الأحوالِ. ومادامتِ النُّجعةُ خبيثةً الأيَّامِ، فلا موجبٌ إذاً للصدِّامِ المباشرِ مع الإنسانِ وافتعالِ معاركِ باكرةٍ لا تُحمدُ عُقباها. فيمهلُ الزَّمانُ، ويُتركُ له كُتُبَ خاتمةِ الحكايةِ.

وفي بعضها، يصبحُ الزَّمانُ شريكَ الفعلِ. يمدُّه قوَّةً ويزيدهُ سطوةً. فنكونُ له العَلْبَةُ، ويكونُ الفردُ كما المجتمعُ أسارى هذا الفعلِ الشَّادِ. عندها، يصبحُ النَّسخُ العاجلُ المباشرُ مطلوبَ سلامةِ فردٍ وصورِ مجتمعاتٍ.

لقد انعدمتِ التُّقَّةُ بالزَّمانِ، وتغيَّرَ الأحوالِ، في إطفاءِ شَغَفِ النَّاسِ واعتمادِهِم على الخمرةِ مثلاً. فكانَ أنْ أمسكَ المُشْرِعُ بناصيةَ الفعلِ، وتَدبَّرَ نسخَهُ على طريقيتهِ الخاصَّةِ. فبعدَ توطئةٍ فكريَّةٍ توعويَّةٍ، ومن ثَمَّ جوازِ شروطٍ موقَّتِ، جاءَ آخرُ ناسخٍ شربِ الخمرةِ مباشراً وبنصِّ قرآنيٍّ صريحٍ لا يحتملُ تأويلاً. وتُرَكَّتْ آياتُ الذِّكْرِ الكريمِ ذاتِ الدَّلالةِ قائمةً إلى ما شاء اللهُ دليلَ نهجٍ وعبقريَّةِ أسلوبٍ في تدبُّرِ أمورِ النَّاسِ، ما استعصى منها على الزَّمانِ وأشكَلَ حلَّهُ على الإنسانِ.

(*) في السِّياق ذاته، أنصح بقراءة المقالات التالية:

- حواء.. هذه
- خُلقتِ المرأةُ من ضلعِ الرَّجُل، رانعةُ الإيحاءِ الفلسفيِّ والمجازِ العلميِّ
- نعم، خُلقتِ المرأةُ من ضلعِ الرَّجُل، والشَّاهدُ جسيمُ بار (PowerPoint)
- المرأةُ تقرُّ جنسَ وليدها، والرَّجُلُ يدعى!
- كما النطاف، هناك بويضةٌ مؤنثةٌ وأخرى ذكر (PowerPoint)
- الرُّوحُ والنَّفْسُ.. عَطِيَّةُ خالقٍ وصنِيعَةُ مخلوقٍ
- خلقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أكبرُ من خلقِ النَّاسِ.. في المراميِّ والدلالاتِ
- مُكاشفاتِ قرآنيَّة، تُفاحةُ آدم، خلقُ حواءٍ من ضلعِ آدم، حواء.. دلالاتٌ ومعنى
- سفينةُ نوح، طوقُ نِجاةٍ لا معراجٍ خلاص
- المصباحُ الكهربائي، بين التَّجريدِ والتَّنفيذِ رحلةُ ألفِ عام
- هكذا تكلمَ إبراهيمُ الخليل
- فقهُ الحضاراتِ، بين قوَّةِ الفكرِ وفكرِ القوَّةِ
- العِدَّةُ وعِلَّةُ الاختلافِ بين مُطلِّقةٍ وأرملةٍ ذاتِ عفاف